الفصل التاسع عشر

الصمود

العفو عند المقدرة

من الجدير بالذكر أن نوضح كيف أن أفكار التسامح والعفو عند المقدرة هي أفكار بنيت عليها شريعة الإسلام. وقد ظهر ذلك واضحا عندما عفا صلاح الدين الأيوبي عن الجنود الصليبيين. وكان هذا التسامح بمثابة الرسالة المبعوثة إلى القارة الأوروبية بأسرها عن قيمة هذا الدين العظيم الذي عفا عن الجنود الصليبيين بعد قتلهم آلاف الأبرياء واغتصاب العديد من الأراضي الإسلامية. وكان ذلك العفو دليلاً على سماحة الإسلام مع أبناء الديانات الأخرى. وبالتالي القضية ليست دينية، وإنما القضية تكمن في اغتصاب أرض إسلامية.

حب الدنيا زائل ... وحب الله تبارك وتعالى باق

والغريب، رغم أن العفو الذي منحه صلاح الدين لآلاف الجند الصليبيين الأسرى هو عمل في غاية الإنسانية، إلا أن أمراءهم قابلوا الإحسان بالإساءة فأمروا نفس هؤلاء الجنود بالتجمع في ثلاث مناطق هي صور وصيدا وأنطاكيا، تلك المناطق التي لم يستطع صلاح الدين فتحها أبدا.

ولقد تصرف كونراد أمير صور بناء على مبدأ إسلامي نفتقر نحن إليه حاليا. والتفاصيل تروى بأن صلاح الدين كان قد أسر والد كونراد، وأراد أن يقايضه

بمدينة صور. ورغم العلاقة الفطرية التي تربط أي ابن بأبيه، ورغم شدة حب كونراد لوالده، رفض الأمير الصليبي تلك المقايضة، مفضلا مصالحه على حرية أبيه. فما لنا لا نضع موقف كونراد أمام أحكام شريعتنا الغراء و نجعل حبنا لله تعالى ، و لرسوله ﷺ، ولجهاد في سبيله، يأتون في المقام الأول في حياتنا تصديقا لقول الله تبارك وتعالى:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة:٢٤].

الإسلام ... خلقا وعملا

دخل صلاح الدين المسجد الأقصى ليلة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ وأدرك عدم إمكانية الصلاة في المسجد بسبب الحالة التي كان عليها حيث كان الصليبيون قد حولوه إلى حظيرة خنازير. ولذا لم تعقد بالمسجد الأقصى صلاة أول جمعة بعد فتح بيت المقدس، وإنما جاءت خطبة الجمعة الأولى بأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين يوم ٤ شعبان سنة٥٨٣. وقد ألقى الخطبة في ذلك اليوم محيى الدين بن الزكي وهو أحد الأئمة الكبار. وأقدم صلاح الدين على إظهار ما كان يتمتع به من وفاء عندما أمر بإحضار المنبر من دمشق الذي كان نور الدين محمود قد أمر بصنعه، وذلك حتى يصعد عليه الخطيب عند إلقائه أول خطبة جمعة بالمسجد الأقصى بعد تحريره. ويا ليت الوفاء والعرفان بالجميل ينتشران بيننا كما كانت العلاقة بين المسلمين في عهد صلاح الدين.

وفى موقف آخر جدير بالذكر، أمر صلاح الدين بعد انقضاء صلاة الجمعة بأن يقوم زين الدين بن نجا المصري بإعطاء درس دين للحاضرين. فرغم مشاعر

السرور والبهجة التي كانت تعم الجميع، إلا أن صلاح الدين أراد أن يذكر المسلمين بضرورة الاستزادة من تعاليم دينهم وتطبيقها لصالح الأمة!

تلبيس الحق بالباطل

وفى تلك اللحظة، كانت كل ديار الإسلام فيما عدا صور وصيدا وأنطاكيا قد خضعت لصلاح الدين الأيوبي. وعلى الجانب الآخر، كانت الحسرة قد أصابت الغرب الأوروبي حتى مات البابا الكاثوليكي من شدة الحزن على استعادة المسلمين لبيت المقدس. وما كان من البابا الذي خلفه إلا أن يحاول إشعال الحماس في الأفراد من خلال وعده لهم بدخول الجنة إذا ما صاموا يوم الجمعة وامتنعوا عن أكل اللحوم يومي السبت والأربعاء. وبالإضافة إلى ذلك، فرضت ضرائب جديدة سميت ب"عشور صلاح الدين"، وكانت عبارة عن عشر الدخل الأوروبي المخصص للقضاء على صلاح الدين. وبدأ الإعلام الأوروبي يستفز مشاعر الشعوب ضد صلاح الدين والمسلمين إذ شرعوا في رسم لوحات كبيرة تصور السيد المسيح على أنه رجل ضعيف يضربه رجل غليظ بمطرقة. وما أشبه الأمس باليوم حيث يصور العالم الغربي حاليا المسلمين بالإرهابيين.

وفى الحقيقة، الإسلام ليس بحاجة لأن يدافع عنه أحد لأنه أكثر الرسالات السماوية سماحة على الإطلاق.

يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

والمطلوب من كل مسلم أن يفتخر بانتمائه للإسلام. ورغم الهجمة الشرسة التي قام بها الأوروبيون بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، إلا أن عدد المعتنقين

للإسلام من الملل الأخرى قد تزايد بعد ذلك التاريخ نتيجة إقبال الأوروبيين على دراسة تعاليم الإسلام واكتشاف مدى سموه.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فُصِّلَت].

وعودة إلى عصر صلاح الدين الأيوبي، أدى التحفيز الإعلامي إلى تحريك الحملة الصليبية الثالثة التي اتسمت بالقسوة والضراوة. وقد وصلت الأخبار أن الأمير الألماني فريديريك باربا روسا قادم إلى الشرق على رأس ثلاثمائة ألف جندي. وبالفعل، عبرت تلك القوات قارة أوروبا واستعدت للوصول إلى الشام من الشمال. كما أفادت الاستطلاعات أن الأسطول الإنجليزي بقيادة ريتشارد قلب الأسد وصل إلى صقلية في طريقه إلى قبرص ثم إلى عكا. هذا بالإضافة إلى تحرك ملك فرنسا فيليب أغسطس بأسطوله في اتجاه الشرق.

واقتربت الأساطيل الأوروبية من عكا، وشرع صلاح الدين في إعادة تجميع القوات الإسلامية. ولم يتوقف عدد الجند الغربيين القادمين إلى الشرق عند المائة وعشرين ألفا الذين حضروا في الحملة السابقة، وإنما كانت أوروبا بأسرها قد لفظت بفلذات أكبادها. كما أن قادة الجيوش لم يكونوا مجرد أمراء عاديين مثل من سبقوهم في الحملات السالفة، وإنما كانوا ملوك وحكام إنجلترا وفرنسا وألمانيا. وعند وصول الأسطولين الإنجليزي والفرنسي بأعداد غفيرة إلى عكا، دار الحوار التالي بين صلاح الدين وابن شداد:

"(ابن شداد) : فيم شرودك يا صلاح الدين؟

(صلاح الدين) : إني أفكر بعد أن نقضى على هذه الجموع القادمة أن أعبر البحر وأرفع راية الإسلام في بلاد الفرنج حتى يقضى الله أمرا كان مفعول".

وإن دل كلام صلاح الدين على أمر ما، إنما يدل على أنه كان ينظر للأمور بنظرة مستقبلية تملؤها الثقة بالتمكن من القضاء على الحملة الآتية إلى الشرق بقوات غير مسبقة، ثم الخروج في أرض الله عبر البحار لنشر الإسلام. إنه لم يعد يشغل باله بمجرد التفكير في معركة من المعارك، وإنما كان همه في العمل على إعلاء راية الإسلام في كافة أنحاء المعمورة.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾ [الزُّمَر].

وبدأ حصار الصليبيين لميناء عكا في عام ٥٨٥ هجرية بعد أقل من سنتين من فتح بيت المقدس. وكانت هذه الحملة قد تم إعدادها إعدادا قويا حتى إن حصار عكا استمر لمدة أربع وعشرين شهرا. وهكذا، ظلت عكا صامدة أمام الأسطولين الإنجليزي والفرنسي لمدة عامين كاملين دون أن تستسلم للقوات الصليبية. وطيلة هذه المدة كانت قوات صلاح الدين متواجدة خارج أسوار عكا، فيما كانت هذه القوات تقوم بهجمات برية متتالية.

وبعد ستة أشهر من حصار عكا، وبالتحديد في مطلع شهر شعبان، قام بهاء الدين قراقوش، وهو المسئول عن التموين بميناء عكا، بإبلاغ صلاح الدين أن المؤن المتاحة سوف تنفد بمضي أسبوعين. وبناء على ذلك، كلف صلاح الدين مجموعة من سفن الأسطول المصري باختراق الأسطولين الإنجليزي والفرنسي. وبالفعل، وأثناء تأدية الأسطول المصري للمهمة البحرية التي تم تكليفه بها، تدخلت القدرة الإلهية فيأمر الله تبارك وتعالى الرياح بتغيير اتجاهها بما يساعد الأسطول المصري على بلوغ ميناء عكا بالمؤن اللازمة! ولم يستطع الصليبيون إصابة الأسطول المصري إلا بعد أن وصلت المؤن إلى داخل عكا. وكان هذا الحدث أحد الأمثلة العديدة التي تنطبق عليها الآية الكريمة:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدَّثر:٣١].

ولقد أكرم الله عز وجل جنده لأنهم توكلوا عليه حق توكله، فهم أولا قد تحروا تقواه سبحانه وتعالى، ثم توجهوا إليه سائلين العون والتوفيق، وأخيرا انطلقوا ليؤدوا ما كتب عليهم من جهاد في سبيله. ومن ضمن هؤلاء الجند المخلصين كان عيسى العوام الذي أجاد السباحة حتى إنه كلف بمهمة توصيل أربعة آلاف دينار ذهبية إلى عكا. وسبح عيسى العوام بين السفن الصليبية غير عابئ بما قد يحدث له في سبيل إنجاز المهمة التي كلف بها. وأصيب عيسى بأحد السهام وتوفى في الحال فغرق. ولكن، يشاء السميع العليم أن يصل جثمانه طافيا على شاطئ عكا ليحصل أهلها على ما كانوا ينتظرونه من دنانير. وبهذا يكون الله جل علاه قد أكرم هذا المؤمن بالشهادة بما في ذلك من جزاء ونعيم لا يعلم مداه إلا الله العلى القدير، وفى نفس الوقت عززه بين الناس بأن جعله يؤدى أمانته حتى بعد وفاته.

وتلك الأمثلة للإخلاص والإيمان بالله الواحد القهار جاءت من أناس كان مسلكهم مختلفا عما نحن عليه الآن. لم يكن هؤلاء المؤمنون يخشون إلا بارئهم تبارك وتعالى. ومن أمثلة ذلك ما فعله شاب دمشقي لم يهب أو يستسلم لمناعة وضخامة الأبراج التي أحضرها معهم الصليبيون والتي كانت تقل على سطحها خمسمائة جندي. وكان هذا الشاب قد لاحظ أن المادة المصنوعة منها الأبراج مادة لا تؤثر فيها النيران، ولذلك فقد عنى بدراستها بهدف التوصل إلى تركيب كيميائي يستطيع أن يقضى عليها. وقد ظل هذا الكيميائي عاكفا في معمله طيلة ثمانية أشهر بذل فيها ما استطاع من جهد ومال وفكر حتى وفقه الله تعالى إلى اكتشاف مادة تبيد الأسوار الصليبية. ولما كان من الضروري أن يصل هذا الدمشقي إلى داخل عكا ليسلم المادة المكتشفة حتى يتم تصنيع منها كميات كبيرة تستخدم في القضاء على الأبراج، أمر صلاح الدين ابنه الأفضل بقيادة بعض الجند لتأمين وصول الدمشقي خلف أسوار عكا. وبالفعل، وصل الشاب إلى عكا وسلّم التركيب الكيميائي المؤثر الذي كان

سببا في تدمير الأبراج الصليبية. وجاءت المفاجأة عندما أراد صلاح الدين مكافأة هذا الدمشقي الأمين، دار بينهما ما يلي من حوار قصير:

"(صلاح الدين) : لقد أديت أيها الرجل واجبك بأمانة وتكبدت في سبيل ذلك ما تكبدت، وقد وجب علينا حسن جزاؤك، فما تطلبه يكون لك بإذن الله.

(الشاب الدمشقي): والله ما فعلت ذلك من أجلك ، وإنما فعلته لله رب العالمين وإني أنتظر جزائي يوم القيامة من الله العفو الكريم".

وبذلك، أصبح الشاب الدمشقي مثالا عمليا للإخلاص لله عز وجل، فقد رفض كل ما كان من الممكن أن ينعم به جزاء ما صنعه من عمل أفاد به الأمة وقضى به على سلاح عدوها. وما كان ذلك ليصدر إلا عن عبد عرف الله ووثق في خير جزائه فاستغنى به عن إحسان من سواه.

والجدير بالملاحظة أيضا أن تلك النوعية من الأفراد قد اقتدت بخير قدوة حيث ضرب صلاح الدين مثالا للقائد الذي لا يتوارى أن يقدم ابنه فداء إعلاء كلمة الله عز وجل. وقد تجلى ذلك عندما جعل صلاح الدين ابنه الأفضل على رأس الجند المرافقين للدمشقي حتى اخترقوا أسوار عكا ونفذوا إلى داخلها، بما في ذلك من خطر يحيط بابن السلطان. ولكن صلاح الدين لم يشغل باله بكونه سلطان المسلمين ولا أبا لولده، وإنما أقدم على ما فعله ابتغاء مرضاة الله عز وجل.

وما كان سلوك صلاح الدين إلا اتباعا لأحكام الشريعة الغراء التي نزلت على رسول الله ﷺ، واقتداء بصحابته عليه أفضل الصلاة والسلام. ولقد جاء رجل إلى النبي الكريم صبيحة غزوة خيبر وأشهر إسلامه، فأشركه الرسول ﷺ في قتال اليهود. وبعد انتهاء المعركة وعند لحظة توزيع الغنائم، قال الصحابي مخاطبا خاتم المرسلين: "والله ما اتبعتك على هذا يا رسول الله، وإنما اتبعتك على سهم هاهنا(مشيرا إلى رقبته)". وعندما انصرف الصحابي، قال النبي صلوات الله

وسلامه عليه: "أفلح إن صدق". ولم يمض على ذلك الحدث سوى أسبوعا واحدا حتى استشهد الصحابي في معركة تالية. وعندما أحضروه أمام النبي، وجدوا سهماً مخترقاً أسفل رقبته، في نفس الموضع الذي كان قد أشار إليه في الأسبوع السابق على استشهاده. فسأل الرسول: "أهو هو ؟". قالوا :"هو هو يا رسول الله". فقال النبي : "صدق الله فصدقه الله".

والغرض من استعراض تلك الأمثلة العملية للإخلاص لرب العالمين هو تحفيز كل منا على محاكاة تلك النوعية من المؤمنين المخلصين الذين نفتقدهم حالياً، مما أدى إلى انحدار أحوالنا إلى أدنى المستويات.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة:١٨٦].

ومن أهم السلوكيات التي كانت ذات أثر بليغ على نفوس المسلمين واستتبعتها رحمة الله لهم أثناء حصار ميناء عكا كان سلوك التوجه إلى الله تبارك وتعالى بالدعاء والابتهال. وبالنظر إلى الحال التي آلت إليها أمور أمتنا من تدهور، فما أقل من أن يتوجه كل فرد منا بالدعاء إلى المولى عز وجل سائلا العون والإرشاد والتثبيت للنفس وللأمة بأسرها، لعل الله عز وجل يستجيب لدعاء أحد الصالحين فيفرج عنا ما نحن فيه من كرب.

***